رثاء الحيوانات عند الشعراء فى العصر السكندرى

دكتور

فكرية مصطفى صالح

مدرس بكلية الآداب – جامعة الاسكندرية

قسم الآثار والدراسات اليونانية والرومانية

رثاء الحيوانات عند الشعراء فى العصر السكندرى

من المألوف والمتعارف عليه أن يكون الرثاء فى الإنسان، إما أن يكون الرثاء فى الحيوان فهذا شئ يتطلب معرفة الدوافع إلى ذلك، خاصة وأن الرثاء يكون معبراً فى كثير من الأحيان عن معاناة حقيقية شديدة التأثر بمحنة الفقد.

وقد يظن البعض أن رثاء الحيوانات نوع من الترف الفكرى الذى لا طائل من ورائه، والأمر جدُ مختلف، فلشعراء العصر السكندرى أسبابهم ودوافعهم فى هذا، مما جعلهم لا يضنون على الحيوان بتلك المشاعر الرقيقة الفياضة.

نجد البداية فى الحديث عن الحيوانات برقة واهتمام عند الشاعر هوميروس، والذى لم يغفل التعبير عن متاعب الحيوانات، فهذا حصان أخيليوس يحمل اسماً كسائر البشر وهو كسانثوس ويعبر لسيده عن شعوره مقدماً بموته المرتقب وذلك بانحناءة شديدة تقترب بشعر عنقه بأكمله من الأرض، وكأنه يقول له إن موتك ليس ببعيد جعل أخيليوس يسأله : لماذا تتنبأ بموتى(١)، وهذا كلب أوديسيوس العجوز يلقى اهتماماً بالغاً أيضاً من جانب هوميروس، فهو يرقد وحيداً حزيناً لغياب سيده، أما بعد أن عاد أوديسيوس

(١) Homer, the I liad Book XIXLL. 405, 409, 420.

نجده يهز ذيله فرحاً ويرخي أذنيه اطمئناناً وبعدها «تتلقفه الأيدى السوداء لهاديس»[1].

ولنستعرض الآن نتاج شعراء العصر السكندرى فى هذا المجال ولتكن بدايتنا بالشاعر يثوكريتوس (القرن الثالث ق.م.) والذى ابتدع فناً صادقاً متمثلاً فى شعر الرعاة[2]. فنجده يخاطب أحد الرعاة ويدعى ثيرسيس قائلاً له :

«لن يفيد انتحابك وأنت تذوب حزناً وتزرف الدمع من مقلتيك:

ἐὶ καταθήσεις σὰ κρυερὰ σὺ γλήνεος
ἐὶ πᾶς ὀδυρόμενος,

لقد رحل (عنا) الجدىُ[3] الصغير الجميل :

χίμαρος, τὸ καλὸν τέκος,

رحل إلى هاديس ἐς Ἀΐδαν أنقض عليه الذئب الشرس بمخالبه

μᾶχυς γὰρ χαλαῖς ἁμφετίναξε λύκος

الكلابُ تَعْوِى – ولكن – ما الفائدة الآن؟ لقد فنى عن آخره، ولم يبق منه عظم ولا رماد[4]. τέφρα λείπεται ἀπολομένας.

---

(١) Homer, The odyss. VII L. 291 ff.

(٢) A,Dihle, A history of Greek Literature , p. 274. cf.

(٣) التيس من الماعز إذا أتى عليه حول، وقيل الحول فهو جَدى.

(٤) Theocritus, Greek Anth. IX 432.
cf also Idem (The Greek Bucolic poets) inscrip. VI (L. C.L.).

ἀνίκα τήνας ἐλίσσων οὐδέ

فهنا يدعو ثيوكريتوس الراعي ثيوسيس أن يصبر ويتماسك، فلا فائدة من البكاء والانتحاب على مصابه الأليم، فقد انتهى كل شئ، والتهم الذئب الجدى عن آخره. وقد عبر ثيوكريتوس تعبير عما أصاب الراعي من شجن وأحزان، كما بين مدى تأثره بآلامه وتوجعه لفقده الجدى الصغير وقد علق أوجست كوا على هذه المقطوعة الشعرية قائلا ! :

إنها عبرت بشكل واضح عن مدى ما كان يتمتع به الراعي ثيوسيس من رقة المشاعر والأحاسيس المرهفة، كما استطاع ثيوكريتوس بدوره أن يعرض ذلك بحس شعرى بالغ التأثير(١).

وها هو «ليونيداس» من تارنتوم (حوالى ٢٧٤ ق.م.)، والذى أحب الريف وبرع فى تصوير الحياة البسيطة، فقد صور لنا سوء العاقبة التى ألمت بأحد الأسود لأنه افترس بقرة صغيرة إذ قال :

ὁ Βουπάμων – «قتل سوسوس – الذى يمتلك الكثير من الماشية

الأسد، بسلخ جلده ἐρυθρόχρουν أصفر اللون، والمشبع بالحمرة، حتى صار كلحاء الشجر φλοιὸν δρυός التهامه لبقرة ذات ضرع وفير εὐθηλήμονα μόλχον فلن يعود مرة أخرى إلى الأدغال. وقد دفع (هذا) الوحش ثمن (فعلته)، فكان الدم بالدم αἷμα ἀνθ' αἵματος وياله من مصير محزن لاقته تلك البقرة»(٢).

---

(١) cf. A. Couat, Alexandrian Poetry, p. 432 note.

(٢) Leonides , Greek Anth. VI. 263.

وفى مناسبة للتضحية بالثيران نجد «كاليماخوس» يظهر تعاطفاً واضحاً مع تلك الثيران فيقول :

«وتذهب الثيران فى الصباح فتقطع (نياط)[1] قلوبها، إذ تبدو صورة السكين الحاد تعكسها أمامها صفحة الماء :

ἤνοσε μὲν ἑκέλλον ἐν ὕδατι θυμὸν
ἀμῦξεν οἱ βοὸς ὀξείαν δερκόμενος
δορίδα. (2)

ولعل هذا الاتجاه راجع إلى ضعف الوازع الدينى، والذى ساد فى العصر السكندرى، حتى صارت عملية التضحية من أجل الآلهة تمثل عذاباً للحيوان.

وفى الحصان قالت الشاعرة أنيتى (أوائل القرن الثالث ق.م.):

«أقام «داميس» هذا النصب التذكارى Μνᾶμα للفرس الوفى ἵππου μενεδαΐου بعد أن طعنه أريس فى صدره، وقد خضل الثرى دمه المنبعث من جرحه الفتاك، والذى كان يتدفق عبر جلده الغليظ: ταλαυρένου διὰ χροὸς (3)

(١) النياط بالكسر عرق متصل بالقلب إذا قطع مات صاحبه.

(٢) Callim. Aetia, III.75

– الإشارة هنا إلى الثيران التى يُضحى بها فى الصباح السابق على الزفاف، وكانت هذه الثيران تربط إلى حوض ماء مقدس قبل ذبحها.

(٣) Anyte, Greek Anth. VII. 208.

فهنا نجد الشاعرة قد أبدعت فى وصف جرح الحصان، وما يتدفق من جسده من دم يخترق جلده، والذى وصفته وصفاً دقيقاً إن دل على شئ إنما يدل على مدى معرفتها بطبيعة التكوين الجسمانى لهذا الحيوان وكيفية تدفق الدم واختراقه لجلده الغليظ.

وفى موضع آخر نجد الشاعرة أنيتى تتحدث عن حب الإنسان، وصديق الشدة، ألا وهو الدولفين، إذ صورت لنا أحزان دولفين ألقته الأمواج على شاطئ البحر، ذلك المخلوق الذى كان يسبح ويمرح ويقفز قفزات رائعة فى الهواء ثم يهبط إلى الماء، ولكنه الآن وقد ألقته الأمواج على الشاطئ يندب حظه قائلاً :

«لم أعد أختال وسط من يجوبون البحار :

οὐκέτι δὴ πλωτοῖσιν ἀγαλλόμενος

πελάγεσσιν.

لن أرفع رقبتى مندفعاً من الأعماق :

οὐχέτ' ἀναπρήθω βυθόθεν ὀρνύμενος

لم أعد ألفظ الماء حول حافات السفن رائعة الجمال، والتى تحمل صورة لى فى مقدماتها: لقد ألقتنى الأمواج الداكنة على شاطئ البحر، والآن أرقد هاهنا فوق هذا المكان الضيق[1].

---

(١) Idem, Greek Anth. VII 215.

– عن المزيد من الأمثلة الدالة على الرفق بالحيوان فى شعر أنيتى :
Cf. Anyte, Greek Anth. VI 312, IX 313.

وفى موضع آخر نجد الشاعر «مليا جروس» (القرن الأول ق.م.) يرثى أرنباً صغيراً، جاعلاً الحديث على لسان ذلك الحيوان فيقول :

«كنت أرنباً سريع الخطى ταχύ ποδν ... λαγῶν ولى أذنان طويلتان، وقد أخذت من بين أحضان أمى، وأنا لم أزل بعد صغيراً.

ἔτι παῖδα βυαρπαγθέντα τεκούσης

ἄρτι μ' ἀπὸ στέρνων

وقد قامت على رعايتى فاينون الجميلة، وغذتنى بنباتات الربيع المزهرة:

εἰαρινοῖς ἄνθεσι

لم أعد أتوق شوقاً لأمى :

οὐδὲ με μητρὸς ἔτ' εἶχε πόθος

إذ أودت التخمة بحياتى :

θνήσκω δ' ὑπὸ θοίνης ἀπλήτου

بعد أن أصبحت بديناً بسبب كثرة الطعام

πολλῇ δαιτὶ παχυνόμενος

وقد قامت «فاينون» بدفنى بجوار مضجعها

μου πρὸς κλισίας κρύψεν νέκυν

كى ترى قبرى يوماً فى أحلامها بجوار فراشها :

ὡς ἐν ὀνείροις αἰέν ὁρᾷν κοίτης

ἡείτονέον τε τάφον.(١)

ففى تلك الأبيات نرى الشاعر «مليا خروس» يتحدث برقة وعذوبة عن حيوان صغير انتزع من بين أحضان أمه فلاقى حتفه.

ولعل هذه دعوة من قبل الشاعر بعدم حرمان صغار الحيوانات من رعاية أمهاتهن، كى يلقوا الرعاية الطبيعية وينجوا من الفناء.

وهذا شاعر آخر من ساردیس ويدعى «بولاينوس» Polyaenus (القرن الأول ق.م.) قدم لنا صورة شعرية جميلة لرثاء ظبية قامت أفعى بلدغ ضرعها الممتلىء، فانتقل السم من الأم إلى ولدها، فمات الاثنان معاً، وقد قال فى ذلك :

«لدغت أفعى شرسة ضرع ظبية حديثة الوضع

Δορκάδος ἀρτιτόκοιο τιθηνητῆριον

οὖθαρ فأرضعت ولدها ضرعاً أفسده السم :

νεβρὸς δ' ἰομενῇ θηλὴν ὀπάσε

وامتص من الجرح الميت لبناً ملئ بالسم الزعاف، فانتقل الموت من الأم إلى رضيعها، يالقسوة القدر ... فقد هيأ الرحم للصغير نعمة الحياة،

---

(١) Meleager , Greek Anth. VII 207.

وحرمه إياها ضرع أمه :

Καὶ αὐτίκα νηλὲς μοῖρ' ἦν ἔπορεν
μαστὸς ἀφειλὲ χάρεν (١)

ففى الأبيات السابقة قدم لنا الشاعر صورة جميلة، فالأمهات دائماً وأبداً فيض من الحنان والسكينة ينهل منه الصغار الطمأنينة دون أدنى خوف أو عذر أو قسوة، فالأم تهيئ للرضيع سبل العيش دون تلمس جزاء سوى الإشباع الطبيعى لغريزة الأمومة، ولكنه القدر - على حد قول الشاعر- الذى حول الضرع من سبب لاستمرار حياة الرضيع إلى سبب لهلاكه دون قصد.

والآن وبعد أن استعرضنا العديد من الأمثلة على رثاء الحيوانات عند بعض شعراء العصر السكندرى نستطيع أن نقول إن الاتجاه الرومانسى، والذى أصبح سمة من سمات الأدب السكندرى، كان سبباً وراء ظهور هذا النوع من أنواع الرثاء، فالرومانسية تعبير عن الروح الفردية وعن الذات الإنسانية، وهى تفسح المجال لظهور العواطف الذاتية والنزعات الفردية، فهذه الرقة الزائدة من نتاج الرومانسية، تلك الرقة التى قد تبلغ حد التمادى فى العاطفة، وكما رأينا فقد امتد التعاطف فيها إلى الحيوانات، وقد يمتد ذلك أيضا إلى الحشرات، وقد عبرت الشاعرة أنيتى عن هذا الحب وهذا التعاطف مع الحشرات فقالت :

---

(١) Polyaenus, Greek Anth. IXI.

«أقامت ميرو قبراً للجرد Ακρῖς عندليب الحقول κατ' ἄρουραν ἀηδόνα والجندب [1]. (زيز الحصاد) τέττιγα الذى يعيش فوق شجرة البلوط.

لقد ذرفت هذه الفتاة بمعاً (غزيراً)

πρθενίον θάλεια κόρα δάκρυ

لأن هاديس الذى لا يرحم Ἄϊδας ὁ δυσ-πειθής

اختطف منها هذين(المخلوقين) المبهجين[2] παίγνια θελκτά

وقد امتدت أيضاً تلك المشاعر الرقيقة لرثاء الطيور، إذ نجد الشاعرة أنيتى تصف ديكاً وقع فى براثن ثعلب فتقول :

«لم تعد تستيقظ مبكراً لتوقظنى من فراشى عندما ترفرف بجناحيك المزدوجين οὐκέτι μέσος τὸ πάρος πυκνωτὶς πτερύγεσσιν ἐρέσσων ὄρθριος ἐγρόμενος.

لأن اللص (الثعلب) أخذك خلسة أثناء نومك، فقضى عليك بعد أن أمسك رقبتك بسرعة بمخالبه : ἦ γὰρ ὑπνώοντα κλέπτης λαθρηδὸν ἐπελθὼν ἔκτεινεν λαιμὸν ῥάμφα καθεὶς ὀνύχα. [3]

---

(١) العندليب : قيل هو البلبل، وقيل هو كالعصفور يصوت الوانا، وقيل طائر يقال له الهزار

(٢) الجندب : جراد صغير يعرف بالقبوط.

(٣) Anyte, Greek Anth. VII 190.

(٤) Ibid, VII 202.

ويضاف إلى الرومانسية كسبب في اتجاه بعض شعراء العصر السكندرى إلى رثاء الحيوانات والحديث برقة وعذوبة عن بعض الحشرات والطيور، يضاف إلى هذا تطور فن الإبجراما Epigrammata في ذلك العصر، حيث أصبحت قصيدة وصفية قادرة على التعبير عن مشاعر وأحاسيس متنوعة، هذا بالإضافة إلى ما وجد في هذا العصر من نتاج شعرى خصب من الأشعار الرعوية

والميل الواضح نحو الريف والتغنى بما فيه من مظاهر الحياة البسيطة، مما أكسب شعراء ذلك العصر القدرة على التعبير وخلق الصور الرائعة.

المراجع

أولا : المصادر الأدبية :

- Anyte, Greek Anth. (L.C.L.)

- Callim. Aetia (L.C.L.)

- Homer, the Ibid, ed. M.M. Willcock, London, 1987.

The odyss. (L.C.L.)

- Leonidas, Greek Anth. (L.C.L.)

- Meleager, Greek Anth. (L.C.L.)

- Polyaenus, Greek Anth. (L.C.L.)

- Theocritus,Greek Anth. (L.C.L.)

The Greek Bucolic Poets (L.C.L.)

ثانيا : المصادر الأجنبية :

- A. Couat, Alexandrian Poetry under the First three Ptolemies, London, 1931.

- A. Dihle, AHistory of Greek Literature, London and New York, 1994.